المركز القومى للترجمة

ذيميتريس ذيميترياذيس

التحول

ترجمها عن اليونانية

خالد رؤوف



2424
سلسلة الإبداع القصصى

التحـــول

(رواية)

تأليــــف: ذيميتــريس ذيميتريــاذيس
ترجمــــة: خـالـــــد رؤوف

2015

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2424
- التحول
- نيميتريس نيميتريانيس
- خالد رعوف
- اللغة: اليونانية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
Η ΜΕΤΑΦΟΡΑ
ΔΗΜΗΤΡΗΣ ΔΗΜΗΤΡΙΑΔΗΣ

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ذيميترياذيس، ذيميتريس

التحول / تأليف: ذيميتريس ذيميترياذيس؛ ترجمة: خالد رؤوف.

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥

٦٨ ص؛ ٢٠ سم (سلسلة الإبداع القصصى)

١ - القصص اليونانية

(أ) رؤوف ، خالد (مترجم)

(ب) العنوان ٨٨١

رقم الإيداع ٩٣٢٢ / ٢٠١٣

الترقيم الدولى I.S.B.N978- 977 - 718 - 348 - 2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

تقـــديم

هل سأعود نفس المرأة ...

العمل الفني أو بالأحرى الكتاب الذي لا يطرح التـساؤلات ويورط المتلقي فيما يطرحه هو في رأيي لم يؤد المطلوب منه بوصـفه عملاً إبداعيًّا؛ إذ هنا تكمن رسالة الإبداع " الدعوة أو الحث علـى التفكير والتساؤل...".

بين أيدينا أحد أعمال الكاتب اليوناني ذ. ذيميترياذيس، وهـو أحد أهم من كتبوا باللغة اليونانية الذي لا يعتبر كاتبًا فحسب بـل مفكرًا أيضا. ينتظر الوسط الثقافي دائمًا أعماله بكثير مـن اللهفـة والقلق والترقب فهو دائما لديه الجديد بل الكثير من الجديد ليطرحه: سرد جديد، أو مواضيع جديدة أو تناول جديد؛ بغض النظـر عـن نوعية ما يقدمه سواء كان مسرحا، أو شعرا أو رواية أو ترجمة.

يرتكز نص رواية " التحول " على شخصية امـرأة بوصـفها نقطة بداية في نهاية طريق يومي معتاد تتعرض لهجوم مجموعـة مـن البشر غير محدد عددهم، لكن الأمر يبدو وكأننا بصدد جمع كبير من البشر يقوم بالهجوم. بداية فردية ونهاية جمعية.

نحن في الواقع هنا بصدد سرد بطله " التحول " ذاته الـــذي يحمل معاني متعددة هنا، وكعادة الكاتب والمفكـــر ذ. ذيميتريـــاذيس الذي تشكل اللغة نفسها أحد أهم عناصر أدبياته؛ إذ إنه يضرب على كل أوتار اللغة ومستوياتها في العمل نفسه... فلو لجأنـــا إلى المعـــنى القاموسي لكلمة " التحول " باليونانية Metaopa سنجد لها معـــاني أخرى مثل: المجاز، والتنقل، والاستعارة وغيرها، وهـــو مـــا يعنيـــه الكاتب أيضا؛ إذ إن كل معاني الكلمة مقصودة في هذا السرد، فنحن هنا بصدد تحول مزدوج، ومجاز مزدوج وتنقل مزدوج.

"ينحسر الأمر هنا على المستوى اليومي المألوف، تقريبا لغـــة محايدة، لغة تناسب تماما الموضوع المحكي، في النهاية فقـــط يـــسود مستوى وبعد لغوي آخر يمنحان الرواية بعـــدا يتخطـــى المـــستوى اليومي، وتكاد تصل لمستوى الحلم". على العكس هنا مـــن أغلـــب أعمال الكاتب، وخاصة ما قد يعرفه القارئ العربي مـــن كتاباتـــه " أموت وطنا " على سبيل المثال.

نستطيع القول بأن كتابات ذيميتريس ذيميترياذيس تدعم دائما الحقيقة، ومثلما في كل أعمال الكاتب في " التحول " أيضا البطـــل

الفعلي لهذا العمل هو الحقيقة؛ الحقيقة التي تنغمس في ظروف إنسانية نواة حقيقتها لم تتغير أو تقل حدتها عبر مسيرة الإنسان في الحياة.

استخدام الكاتب وتوظيفه للعنف في أعماله، وفي هذا العمل تحديدا، يستحق وقفة بل وربما وقفات متكررة من كل قارئ؛ إذ إنني أعتقد أن أعمال هذا الكاتب لا تُقرأ مرة واحدة.

أستطيع، وبكل ثقة، أن أعد القارئ بتجربة خاصة في التعرف على هذا الكاتب، وعلى أعماله وبمتعة خاصة ربما لا يقابلها القارئ كثيرا، كما أعده بالعديد من التساؤلات التي ستدق على أوتار حقيقة كل قارئ وخياله.

المترجم

د. خالد رؤوف

هل سأكون المرأة نفسها عندما أعود؟

فور أن خرَجت، سَمِعَت صوت ضـحك. كـان الـصوت معدنيـًا مدويـًا، لم يبدُ لها في البداية أنه صـوت ضـحك، صوت صفير أو حفيف لم يكن مصدره إنسان، لكن زمنه الطويـل غير الطبيعي أعطاها الوقت لتفهم أن ثمة شخصا يضحك؛ رغم كـل ذلك وبينما كان الصوت يستمر بنفس الشكل والتوقيـت دون أن ينقص كان يزداد لديها الانطباع أنه لم يكن ضحكـًا، بل كـان يتشابه بشكل أكبر مع صرخة حيوان يُعذب بآلة حادة بضراوة.

هذا العويل أيقظ داخلها الرغبة للحظة أن تهرول، كي تساعد ذلك المستغيث بهذا الشكل الغامض، كأنه شخصٌ عُـذب ويُعـاني بشكل لا يُحتمل.

لكن استمرارية الضحك، وزمنه أيضـًا الذي يمكن أن يصل إلى الإعجاز الرياضي جعلها تتأكد لمرة أخرى، مـدى اسـتمتاع ذلـك الضاحك هذه الطريقة، غير مبال بكمّ الاستفذاذ الذي يولّـده لـدى الآخرين، ربما كان يتسلى بالاختبار الذي يضع فيه أعصاب الآخرين.

كانت تسأل نفسها هذا السؤال في كل مرة تستعد فيها للخروج من البيت، والإجابة كانت تأتي دائماً فيما بعد.

وبينما كانت في طريقها نحو موقف الحافلات، والأصوات الأخرى التي كانت تسمعها من كل الجهات؛ تركيبة غامضة من النباح والعويل وصرخات مفجعة على نفس نطاق ووزن الضحك.

على الرغم من أنها قد سمعت مرات سابقة هذا المزيج من العويل، لم تستطع قط - وهي تقطع تلك المسافة بين المترل وموقف الحافلات - أن تتفادى الوقع المرير المفاجئ لهذه الأصوات، أو أن تظهر شيئاً من التكيف معها، لم يكن بمقدورها أن تتشبط من أثرها المروع بداخلها.

في كل مرة قبل أن تغادر المترل، تحاول أن تُعد نفسها لذلك، لكنها أبدًا لم تكن مستعدة أن تقطع هذه المسافة بلا مبالاة، مُحصنة أو بلا أي ضرر، هذه المسافة القصيرة؛ لم يكن باستطاعتها قط أن تتحكم في أعصابها وتطوعها، لم يكن باستطاعتها أن تثبت على انفعال ما ربما بارد، وتجمده أمام تلك الأشياء التي لم يكن لديها أدنى شك أنها ستسمع وترى.

نقطة ضعفها هذه كانت نوعًا من الإعاقة الذهنية المتأصلة، عدم مقدرتها أن تتأهب وتحمي نفسها، كان يصيبها الحزن والإحباط، يُثار غيظها، لكن بصفة خاصة كانت تشعر بالنقص، بضعف يصل إلى درجة الإعاقة أن تتخطى عجزا خلقيا، عيب جوهري، كان يعريها أمام نفسها، وكما هو الحال دائمًا، شعرت الآن، في هذه اللحظة، أن ذلك الإيقاع بدأ في التحرك، وهي تعرف جيدًا إلى أي مدى يمكن أن تصل حالة الهياج تلك.

بدت لها المسافة لا نهائية. جربت من قبل أن تسلك شوارع أخرى؛ كي تذهب إلى موقف الحافلات، لكنها كانت مضطرة أيضًا أن تمر بظروف مشابهة؛ كانت ترى الأشياء نفسها، وتسمع الأصوات نفسها، بغض النظر عن أي الشوارع تسلك، وكأن كل شارع بات نسخة طبق الأصل من الشوارع الأخرى، أو ربما بتحريف بسيط عنهم.

مر زمن على خروجها من البيت، محاولة أن تقلّص مرات خروجها من البيت إلى أقصى حد وللحاجة القصوى، كانت تشتري أغراضها قدر استطاعتها؛ لتكفيها لأكثر عدد من الأيام؛ وكان مايضطرها للخروج هو أن بعض الأغراض لا تغطيها خدمة التوصيل للمنازل. وفي كل مرة قبل الخروج الذي لا مفر منه كانت تلوك

الفكرة في ذهنها أيام وأيام حتى تشرع في ذلك، وفي كل مرة بعد عودتها، لم يكن قط الأمر سهلاً حتى تعود لاتّزانها من جديد. كلّما أعطت لنفسها أعذارًا على ردود أفعالها في هذا الأمر، مثلما في أمور أخرى، كانت دومًا تجد في تصرفاتها شيئًا يؤسف له، شيء لم يكن ملائمًا - تمامًا - للوضع، شيء مبالغ فيه، وربما غير طبيعي، وسببه الحقيقي ربما لم يكن كما كانت تعتقد هي، كان السبب شيئًا خفيًا لم تكن لديها الجرأة أن تعترف به وتضعه في حياتها، أو على الأقل تواجهه بهدوء، فهي دائمة الهروب منه ودائمًا ما تعطي شروحًا ومسميات أُخَر لا تمت لهذا الشيء بصلة. ومع ذلك، وحتى هذه الملاحظة الرزينة لم تكن كافية أن تحتوي أو تتحكم في هذا الإيقاع السريع الذي في النهاية يصبح غير مفهوم، ومن الصعب السيطرة عليه مثل حركة جماعية لجمهور من البشر محتقن بمشاعر ثورية، أو مُخدر من التعصب لدرجة تصل إلى الشلل وبشكل يكفي؛ كي يؤدي به الأمر إلى تصرفات متطرفة لا يعرف أسبابها سوي هؤلاء المحرضين فوق المنابر، كان - دائمًا - يسيطر عليها بل وبشكل كليّ، حتى إنها أحيانًا وهي مستغرقة في دفعته الجنونية تصبح مسلوبة الإرادة، وليست في وضع أن تبذل أي نوع من المقاومة، كما لو كان يسيطر عليها النقيض تمامًا

من ذلك الشيء الذي يشعرها بالنقص، وأنها تنتمي إلى نـوع أدنى، وتستحق حتى هذا النوع من السلوك الذي يعاملها بها ذاتها.

كان الطقس حارًا، كل النوافذ مفتوحة، حتى الأبواب. وهي تسير في منتصف الشارع لم تكن بحاجة أن تنظر يمينـًا أو يسارًا؛ كي ترى ماذا يجري على الأرصفة. الأشخاص نفـسها. لا تعـرف أحدا منهم ولم تتحدث قط مع أحد، لكنها قد رأتهم مرات عديـدة حتى كأنها تستطيع أن تراهم دون أن تنظر إليهم. كانوا يجلسون على درجات المداخل على أرجلهم وعلى حافة الأرصـفة، أو يـسيرون ذهابـًا وإيابـًا يلوحون ويتحدثون بصوت عال إلى بعـضهم من على الرصيف إلى الرصيف الآخر، أو يشكلون جماعـات مـن ثلاثة أشخاص أو أربعة؛ ويتحدثون بـصوت خفـيض، ويعطـون الانطباع بألا يجب أن يسمعهم أحد آخر. أو كانوا مصطفين علـى امتداد الحائط كمن ينتظر أحدًا سيجلب أو سيقول لهم شيئـًا؛ لهذا اصطفوا بهذا الشكل، يرتدون ملابـسهم الأنيقـة، مـشذبين وحالقين ذقونهم، وشعر رءوسهم الغزير مصفف ولامـع، كـأنهم خرجوا من الحمام توًا، وارتدوا أفضل ملابـسهم كـي يـستقبلوا

شيئـــــًا ما سيغير حياتهم تغيرًا جذريـــــًا، آخرون بأقدامهم الحافية متسخة منذ أيام داخل شباشبهم البلاستيكية، لا يرتدون سوى فانلة وبنطالاً متهدلاً، بوجوه غير حليقة وبلا تعبير مـــن فـــرط التعـــب والانتظار واللاجدوى، بشعور انهزامي وملل في حركاتهم، وكـــأنهم اتخذوا قرارًا في داخلهم وأدركوا أن الذي وُعِدوا به لـــن يـــتم، وأن وقوفهم دون جدوى، وأن أحدًا لن يأتي كي يقودهم هناك حيـــث قيل لهم، دون أن يخبرهم أحد إلى أين هو هذا الـــ(هُنـــاك)، ورغـــم ذلك كان الجميع في وضع معلق مطول ومستمر، دون أن يجدوا أيّـــة شجاعة كي يوقفوه، ظلوا في مكان وسط، بعد شيء وقبل شـــيء، الأول منتهٍ والآخر بلا نهاية، في نوع من الازدحام بلا معنى، حمى بلا سبب، طاقة كبيرة بلا مخرج أو مؤشر، في جو من عـــدم الجـــدوى التامة، التي كانت تبدو مبكرة، حيث إن الأغلبية كانوا شبابـــــًا أصحاء، بأجساد رياضية قوية من فرط معاناة وكـــدح مفـــروض، بديناميكية لدى أغلبهم أخذت شكلاً جنـــســـيًا طائـــشـــًا، عفويـــًا وجائعـــًا لكنه غير معدٍ لنشوة بلا مخرج، والتي كانت يُعلن عنها فقط بنظرات حسية ثاقبة، كانوا يرسلونها علـــى فتـــرات

متقطعة بإشارات غير مفسرة كانت تشعر بلمساتها عدة مرات دون أن تتحول إلى حركة أو إيماءة أو كلام، تلك العبارات وحيدة المقاطع التي تحتوي علينها جمل عديدة، كانت تجعل وجوههم في تلك اللحظات تعطي الانطباع بأنها عيون، عيون فقط ولا شيء آخر.

كانت هناك نساء؛ معلقات في البلكونات أو محشورات في شرفات ضيقة، تغزلن وتنشرن الملابس، حاملات أطفالهن الرضع، تصرخن في أولادهن الأكبر قليلا الذين يلعبون في الشارع، تتحدثن بلا توقف في الوقت نفسه؛ بعضهن نزلن إلى الشارع مرتديات ما كن ترتدينه في بيوتهن، بناطيل لم تكن قط ملائمة لأجسادهن، أحذية كانت تُغيّر كثيرًا طريقة سيرهن، كن في تشكيل جسدي غريب؛ يجعلك تظن أن شيئًا خارجًا عنهن، ربما عامل ما أو عدة عوامل مشتركة أدت إلى صدع ما، ولم تنمُ تلك الأجساد بشكل طبيعي، أيادٍ أقصر من الشكل الطبيعي، رءوس كبيرة بشكل لا يتناسب مع بقية تكوينهن الذي يبدو عليه سوء تغذية واضح، ظهورهن بارزة عظامها وعلامات كثيفة من آثار كبريت، وكأنهن خرجن في التو من مرض فيروسي معدٍ، ولم يطبن منه تمامًا،

تاركـــا على وجوههن شحوبًا مشؤومًا، لكن كـــن ســريعات الحركة، فظات اللسان والسلوك، صوت قهقهتهن المدوي كان يأتي طارئـــا ويقطع الهواء مثل عدو حيوان اللاما، بصرخات مفاجئـة كانت تكشف عن قوة غير ظاهرة، تتركن خلفهن رائحـــةً كأنمـا تَطَيَّبْنَ لتوهن بعطور رخيصة دون أن تغتسلن من قبـل، أو كـأهن ترتدين الملابس نفسها منذ زمن وإن كن تغسلنها، بقيت في الملابس بلا زوال رائحة مركزة من العرق النتن. هذه الرائحـــة - قبـل أن تسمع أو ترى- كانت هي السائدة في الشارع، التي بدورها كانـــت الحافز الأولي كي تبدأ حركة ذلك الإيقاع بداخلها. لكن لم تكـن فقط رائحة أجساد النساء التي تتركن خلفهن، ولم تكن رائحة تـأتي من أجساد الرجال التي كانت بدورها خانقة أيـضـــا، أو الأولاد الذين يبدو وكأهم لم يستحموا بعد أن ولدوا. هذه الرائحة كانـــت للشارع نفسه، وكأن الهواء لم يكن كافيـــا، وكأن الـشارع لم يكن مكانـــا خارجيـــا بل داخليـــا، مكان بين تقـسيمة الشقق، أو ممر رئيسي مشترك لكل الشقق تتجمـع فيـه بتركيـز رائحتهم، لكن شققًا مغلقةً لم تفتح نوافذها قط، وكان كـمٌ مـن

البشر مضطرين للعيش فيها معـــــاً متكدسين، يعالجون الروائح من رائحة أفواههم الكريهة نفسها، يعلقون ملابسهم، وظائف جسدية؛ كانت للشارع رائحة عفنة كقبو يكمن فيه جسد إنسان أو حيـــوان تُرك مهملاً بعد أن انتهك بضراوة؛ ويتعفن هناك دون أن ينتظر أحدًا يأتي لينقذه ولو في آخر لحظة.

وكما كانت تسير محاولة أن تتجنب الأطفال الـــذين كـــانوا يهرولون بحركات عنيفة وصيحات حـــروب، لم تـــستطع قـــط أن تتجنب تلك الرائحة التي كانت تثير غضبها أكثر من كل الأشـــياء الأخرى؛ بغض النظر عن هذا، كان صعبـــــاً جدًا - إن لم يكـــن مستحيلاً - أن تضع كف يدها على أنفها، كانت تخـــشى مـــن رد الفعل إذا ما رأوها، أن يلتفت الجميع نحوها رجالاً ونساءً وأطفـــالاً، ينظرون إليها بتساؤل في البداية، ثم بإهانة، غاضبين، ثائرين، تعلوهم القسوة والشراسة، تسودهم غريزة الكرامـــة المهانـــة، يحاصـــروها، يسقطون جميعـــــاً فوقها، يمارسون في جـــسدها كـــل غـــضبهم المخزون والمكبوت، وعندما ينسحبون، لن تكون في دائرتهم، سيأخذ كل منهم شيئـــــاً منها ويمسك به في يده أو في فمه.

كانت تمضي - دائمًا - وقتًا طويلاً حتى تصل إلى الزاوية وتنحرف نحو موقف الحافلات؛ حيث ينتهي بها الطريق مهرولةً لاهثةً. الآن تتسع خطوها. تفكر أن تستمر في السير حتى تصل إلى وجهتها؛ أرادت أن تتجنب الاختبار الآخر في طريق الحافلة، لكن لم يكن لديها لا الرغبة ولا قوة الاحتمال في السير، كل ما كانت ترغب فيه أكثر من أي شيء آخر أن تنتهي في أسرع ما يمكن من شراء أغراضها، وتعود بلا أي تأخير أو خسائر، مختزلة قدر المستطاع الوقت الذي ستستهلكه في خروجها الاضطراري اليوم.

في الحافلة وجدت نفسها في حالة أخرى ورغم أنها حالة جديدة، فإنها لم تختلف قط عن المرات السابقة. واجهت صعوبة أن تتقدم في الحافلة إلا أنها في النهاية نجحت في أن تصل إلى منتصفها، حيث كان الوضع على عكس ما كانت تنتظره، الازدحام كان أكبر. رغم ذلك، كانت كثافة الأجساد محتملة، حتى وإن كانت بمعنى آخر أو تحت ظروف أخرى شيئًا مرغوبًا، إن لم يسبقها تكذيب مُقدم من منظر كل الركاب تقريبًا- واحدٌ ربما اثنان كانت له ملامح متناسقة- حيث لا تستطيع أن تأخذ عينيك من فوق

وجوههم بسرعة، أجساد تشك في تناسقها تحت الملابس الأنيقة، بل وربما كونها مغطاة ينقصها بعض الشيء من ظهور ليونتها وجمال تشكيلها. تساءلت ربما نظرها بات يشوّه تماماً باقي الوجوه، ربما الإيقاع الذي بدأت سرعته تزداد داخلها كان يُحرّف الطريقة التي كانت تقدر بها وسطها المحيط، ربما لم يكن للوسط المحيط دخل بالأمر على الإطلاق، وجوه وتكوينات أجساد، بل هي نفسها التي كانت ترى كل هذا بالطريقة التي كانت تراها.

أغلقت عينيها. كان الجميع يتنفس بثقل وكأنهم مرهقون، كأنهم عائدون من عمل يدوي ثقيل، من الأعمال والمشاريع القسرية في البرد من فرط الحاجة. كانت تسمع أنفاسهم، وكان يبدو لها أن كلها تخرج من فم واحد. شعرت بشيء على بطنها. فتحت عينيها. حقيبة جلدية ضخمة معلقة بحزام عريض على كتف امرأة أمامها تضغط بإحدى زواياها بقوة تحت سرتها؛ كانت زاوية مغطاة بإطار معدني، لذا كان ضغطها قوياً - تقريباً- حاداً، صارت أكثر من مضايقة، آلمتها، كان هناك خطر أن تدخل في جسدها، جذبت جسدها للخلف قدر ما استطاعت، لكن هذا لم يكن

كافيـــــاً كي يخفف حدة الألم الناتج من ضغط الزاويـــة المعدنيـــة الحادة. فكرت أن تتوسل للمرأة أن تنجذب قليلاً للأمام، لكن النظرة التي رمقتها بها عندما طلبت ذلك منها كانت عدائيـــة، وكأنهـــا لم تتطاول عليها وتهينها هي فقط، بل وعلى حقيبتها أيضـــاً، وإهانة الحقيبة بالنسبة للمرأة كانت تبدو أكثر غلاظة، تقريبــــاً لا تغتفر، لدرجة جعلتها تفضل أن تتحمل هذا الألم الحاد لتلك الزاوية المعدنية الحادة بلا تذمر، حتى وإن كانت تُؤلم مثل آلة حادة، بدلاً من تلــك العدائية والمهانة والحط من القدر، بل والبصق. مرات عديدة شعرت بالندم، ومنها اليوم ؛ لأنها لم تكن تحمل في حقيبتها مقصــــاً صغيرًا قويــــاً كي تستطيع في لحظات مثل هذه، وحين لا يراها أحــد في هذا الزحام – أن تقطع هذه الأحزمة العريضة التي كانت تعلق تلــك الحقائب الضخمة، والتي كانت تواجهها في كل مرة تــضطر فيهـــا للخروج. تودّ لو كان معها أدوات أكثـــر حـــدة أيــضـــاً- في حقيبتها، لأنها دائمــــاً كانت تشعر في لحظة باحتيـــاج عـــارم في استخدامها؛ لأن بهذه الطريقة فقط سوف تستطيع أن تثــبط ذلــك الإيقاع الذي يعذبها بانفعالاته وتحولاته السريعة؛ طالبـــاً بإصـــرار

تشبع مباشر، ولأنها لم تكن تعطه له في التو، وأحيانـــــًا أبدًا، كان يحول مطالبه المسعورة ضدها، ويحولها إلى أداة عنف لإيذاء مشاعرها ذاتها، ويجعلها تعاني من أشياء كان لابد لها أن تمارسها هـــي علـــى الآخرين الذين- بهذه الطريقة- كانوا يصبحون مطارديها ومعتديها. كانت تحمل دائمـــــًا حقيبة صغيرة بها مكان للأشـــياء الــضرورية للغاية، أكبر قليلاً من حافظة نقود- كيف تتسع لمخزن تسليح منظم كما كانت ترسمه في رأسها.

نظرت حولها. الكل يهتز بشكل جماعي إثر اهتـــزاز الحافلـــة المستمر. الرءوس كانت تذهب للأمام تارة وللخلف أُخرى، للـــيمين تارة ولليسار أُخرى؛ بدا على الجميع علامات الإرهـــاق المفـــرط، لدرجة جعلتها تتساءل كيف يستطيعون الثبات في وضع الوقوف، بل ومن أين أتت لهم القدرة ليمسكوا بالمقابض؛ الشيء الوحيد الـــذي من الممكن أن يكون قد ثبـــتّهم هو أن كُلاً منـــهم كـــان يرتكـــز بإحكام على الآخر، أن كُلاً منهم كان يثبت وضع الآخر واقفـــًا، هذا هو السبب الوحيد الذي يحافظ على توازنهم من الـــسقوط. لم يتكلم أحد. تشابه تعبيرات الوجوه، نوع من الحيـــاد المنيـــع علـــى

وجوههم؛ مما جعل ملامح الوجه تكاد تنسخ ملامح الآخرين، هـذا التنقل كان يوحي لها بشكل أكبر ماهية بعد التحول غـير المتمـايز للجميع نحو اتجاه مشترك، نحو محطة نهائية واحدة، وعلى مايبدو أنهم كانوا يجهلونها، أو على الأقل كان لديهم شك ما، وكانوا يتجهـون نحوها بدأب ومثابرة وصلابة عتيقة، وكأنهم - دائمـاً - محكـوم عليهم بعد احتجاجات وتوسلات ميئوس منها قد تقبلوا الوضع؛ أن يتبعوا قدرهم الذي يذهب بهم نحو نهاية لم تبدُ لهم، أو تعطهـم أي أملٍ في أنهم سيعودون منها أحياءً؛ صورتهم تظهر كتلـة أو شـحنة مهملة مسلوبة الإرادة عاجزة عن أي رد فعل، مواصفات وخط سير هذه الشحنة كانت مقررة ومرتبة قبل ذلك، ومن قِبَل أشـخاص لا أحد يعرفهم؛ كل من نزل من الحافلة كان يفعل هذا، وكأنه شـيءٌ خارج عن إرادته، أو كأنهم غير متأكدين من النـزول في هذه المحطة وليس في محطة أخرى، وكأنهم لا يفهمون سبب نـزولهم كمـا لم يفهموا- في الأساس- سبب ركوبهم للحافلة. وبينما ركـاب مـن الشباب ملأوا الفراغ الذي تركه الذين تركوا الحافلة، بقي الازدحام وقلة التهوية فجعلوا الجو مسمماً بدرجة لا تطاق، أجساد غـير

نظيفة، كولونيات مستخدمة بإفراط كي تغطي على أبسط قواعد النظافة الصحية، رائحة أفواه كريهة، جوارب عفنة، وملابس داخلية تعفنت من فرط ارتدائها. وقفت بجوار نافذة مفتوحة، إلا أن هذا لم يساعد في شيء، وكأن الجو الخارجي كان بالضبط هو الهواء نفسه داخل الحافلة، وكأن لم يكن هناك أي فرق بين الداخل. كان مستحيلاً بالنسبة لها أن تتظاهر بأنها لا تشعر بكل هذا، وكانت تكره رغبتها المستمرة الملحة في حاجتها أن تضع يدها على وجهها؛ وتغطي أنفها بكف يدها. لم تفعل هذا، وإن كانت ترغب فيه بإلحاح لكنها لم تفعل، كان الخوف يمنعها.

انحرفت عند زاوية الشارع، واتجهت سعيدة نحو الحانوت؛ حيث أرادت أن تبتاع أغراضها الخاصة التي لم تتحدث قط إلى أحد عنها، تلك الأغراض التي كانت لها بمثابة سر حياتها الوحيد؛ لم تكن لديها أية رغبة في أن يعرف أحد آخر هذا الشيء الذي كانت تملأ به ساعاتها بأفضل طريقة عندما تمضي هذه الساعات وحيدة في المنزل؛ كانت المشتريات، أو الأغراض، أغراض الحياة كما كانت تسميها، لم تكن لديها أيضاً الرغبة في أن تتقاسمها مع أحد

آخر؛حيث إن بهذه الطريقة فقط كانت تحافظ على الحياة الخاصة في الخفاء التام، كانت هذه الأغراض تعطيها ما تريده منها، كما كانت هي ستعطي كل ما يتطلبه الأمر كي تحصل عليها في كل مرة كانت تنفذ منها؛ لم تكن لديها متعة أخرى، هواية أخرى، فالمتعة التي كانت تُمتص من هذا الانشغال، كانت نوعًا من التبادل الذاتي المستقل، كان يكفيها ويشبعها إلى الدرجة التي كانت تجعلها لا تقبل ولا حتى تتصور أن هناك متعة أكمل من هذا، كانت ممتنة جدًا لذلك، فبفضل هذا الانشغال، الهواية، المتعة نجحت في أن تزن كل الأشياء الأخرى التي كادت تحطمها منذ وقت بعيد، هذه الأشياء التي كانت بمثابة هجوم مضاد وفعال لهذه المتعة/ الانشغال، كانت تأتي وتأتي راسخة ومتجددة، لتذكرها بأنها لا لم تتضاءل فقط، لم تتركها خلفها، لم تكن فقط ملازمة لها، بجوارها، ولكن أمامها ولو حاولت أن تنظر نحو مستقبلها.

الرصيف العريض، عادة ما يكون مزدحمًا بالناس، في هذه الساعة كان خاليًا من البشر؛ لكن الشيء الذي لم يدهشها فقط ولكن فاجأها أيضًا، عندما رأت فجأةً أمام أقدامها في منتصف

الرصيف عجوزًا مستلقيًا. كان نائمـــًا على جنبه الأيمـن، يـداه معقودتان على صدره، ورِجلاه مفرودتان كما لو أن أحدًا شـدَّهما كي يحركه، لكن يبدو أنه يأس بعدما اتَّضح له صعوبة المهمة، تركـه كما هو ورحل. ظنت أنها نظرت فجأة داخل قبر مكـشوف، أو في عمق تابوت أثري بلا غطاء فوقه. لكن المفاجأة بالنسبة لها هـي أن شخصًا ينام على الأرض، بلا غطاء ومكشوف هكـذا في شـارع مركزي جدًا، حتى وإن كان خاليـًا في هذه اللحظة، ما جعلـها تتجمد في مكانها هو أن العجوز كان متسخـًا بشكل لا يوصف، من قمة رأسه بشعره الطويل الرمادي ولحيته، مما أعطى لـه منظـر كاهن أشوري لكن بعد وقوع زلزال، حتى أصابع أقدامه التي كانت سوداء تمامـًا داخل حذائه المتهرئ، كان عبارة عن كومـة مـن القذارة التي في مناطق متعددة على وجهه ويديـه كمـا في أمـاكن أخرى، هذه القذارة تحولت منظرها إلى قشرة؛ مما غـير أو أخفـى ملامحه، منظر القشرة هذا كان يوحي أيضـًا بأنها جـروح مـن ضربات عنيفة، أو طفح مرض جلدي معد. كانت رأسه عند أقدامه وباقي جسده في وضع ملتوٍ، في نفس وضع الجنين قبل الولادة، بَـدَا وكأنه سقط أو أنه ما زال في حالة سقوط من مكان عـالٍ، كأنـه مقتطع من عمل فني ضخم، مرسوم على الحائط حيث كان هو جزء

من وحدة كبيرة، كانت تخلد لحظات من حياة بني جنسه، بمجتمع في أيام القدماء انحلّ أعضاؤه عن قبائلهم، وانتشروا في الأرض كما جاء هو، بعد تمثيل تاريخهم الطويل العظيم الظافر إلى حالته الآنية البائسة. صورة العجوز، هي صورة للانهيار التام، كان كل من يمر بجواره يبتعد فقط كي لا يدوس عليه، ثم بعدها يلتفت كي ينظر إليه بمزيج من التساؤل والاشمئزاز أو القرف الذي كان ينتهي في حالات كثيرة إلى ضحك هيستيري، كان يؤدي بها إلى شفقة معززة بسخط، وكأنها طافت في مكان ما في عقلها، منطقة ما في ذهنها لم يذهب إليها منذ زمن أحد ولا شيء، إحساس بالعدل أمام ارتكاب ظلم غير شخصي، والذي أصله هو بداية لتسلسل قصص مبتورة لا تتغير وكانت تنتهي دائماً عندها. قد أثار المشهد مشاعرها، كانت تشاهد وهي مصدومة.

في طريقها نحو المتجر التفتت مرات عديدة نحو الجسد المهمل، وفي قرارة نفسها قناعة أن كل ما شعرته كان كافياً، حتى إنها عندما ستخرج ستفعل شيئاً.

تقريباً لم تفكر ماذا تشتري؛ لم تُعرْ هذه العملية أيّ انتباه كالعادة، كان تشتري الأشياء نفسها، حتى وإن لم تكن بحاجة إليها،

وفي المتجر كانوا يعرفون دائمـــًا وبالتحديد الأشياء التي تشتريها، بل وكمياها في كل مرة تزور المتجر. كان ذهنها شاردًا تمامـــًا في العجوز، حاولت ألا يكون هناك أي تأخير على الأقل من ناحيتـــها، لتنتهي قدر الإمكان بسرعة من عملية الشراء، حتى تعود إلى هنـــاك مرة أخرى- هذا الجسد المُلقى صار مرجعها التام؛ لم يتجه قط عقلها نحو شيء ويثبت عليه بكل هذا التركيز إلا نحو نفسها، لم يحدث من قبل قط أن تتشتت، أو يقاطعها شيء عن انشغالها الرئيسي، وكـــأن إحساســـًا عجيبـــًا داهمها كالرعد- أو أنه تم اكتشاف منطقة معروفة بالنسبة لها لكن غير مجربة على الإطلاق- قد حدث للتَـــو، كأن تخشى أن تتأخر ولو ثانية، وبسبب هذا التأخير لمدة هذه الثانية، ضيع منها هذه الفرصة. رغم ذلك، منظر هذا العجوز قفز إلى خيالها بشكل عجيب نحو الخلف نحو ماضيه؛ ورأته في عمر أصـــغر. ولـــد صغير ينظر إلى عدسة التصوير بعينين جـــاحظتين احتـــشد فيهمـــا التساؤل والإلحاح، لم يكن ليتصور إلى أين ستنتهي حياتـــه، هـــذا الشيء- ولأسباب خاصة جدًا بها اغرورقت عيناها، دون أن تقـــصد ذهب انتباهها نحو البائعة في المتجر، والتي صار ســـلوكها مزعجًـــا

بشكل مستفز، قابلتها بسخط، كانت في مزاج سيئ متجهمة الوجه، لم يكن لديها أدنى شك في هذا؛ حيث لم يكن غيرها في خدمتها، الطريقة التي كانت تتحدث إليها دون أن توجه لها أي حديث كانت خبيثة بشكل استعراضي ومهينة بشكل مقصود، كأنها مُعدة للفظاظة، كانت متأكدة أنها عن قصد أرادت أن تُظهر لها أن وجودها في المتجر أمر غير مرغوب فيه، وأنها كانت تحبِّذ ألا تراها أمامها وتنشغل معها، وكأنها تقول لها ألا تبتاع شيئًا من المتجر وتهمّ بالمغادرة، على الرغم من أنها مجرد موظفة في متجر، ولم يكن لديها أي حق أن تعبر عن مشاعر مشابهة للعملاء، حيث إن واجبها الأول هو أن تخدمهم، ناهيك عن أن الموظفة لابد وأن تخفي أي إحساس سلبي تشعر به تجاه العملاء؛ لأن هذا لم يكن شيئًا في صالح أصحاب المتجر. هذا الانتهاك للواجبات، هذه السلطة القضائية التي لا يملكها من له الحق في ممارستها، لم تنحسر في حيز احتقار الآخر، بل كانت تتسع بالقدر الذي يمكن للمرء أن يلمس رغبة في نسف الآخر، أن يتعرض المرء للإبادة. الآن ترى في عينيها أنها جاهزة لأن تطردها من المتجر، حتى إنها من الممكن أن تطاردها، أن تفعل

شيئــــاً عنيفــــاً تجاهها إذا هي لم تصغِ لها على الفــور. كــان واضحــــاً أنها تتحمل وجودها بصعوبة بالغة، وأن احتمالهــا قــد وصل إلى حد نهايته؛ لم تنظر لها مباشرة في عينيها، كأنها تشمئز منها، ولا تستطيع أن تحتمل صورتها أمامها، على شفتيها ارتسمت عينــة بسيطة من الاشمئزاز، إيماءة مائلة تفيد الضجر تشبه سن سيف مائل، وبين حين وحين ولأسباب شخصية كانت تعطي الإيحاء بكــل أدب ووقار رغبتها في التقيؤ، كانت تضع كف يدها على فمها بعــصبية مقصودة، ربما كي توضح أن احتمالها قد نفد، وبغــضب مكتــوم بالكاد، رغم أن رغبتها الشديدة في أن تتركه ينفجر فيهــا فيغرقهــا كالسيل. هذه البائعة كانت بكل الأحوال فظة ومنفرة، لكن سلوكها اليوم تخطى كل الحدود بشكل لا يوصف. ماذا حدث؟ هل كــان هناك شيء في هيئتها أو على ملابسها، على وجهها ربما وقد ضــايق البائعة بهذا الشكل؟ لم تشأ أن تُظهر أنها تنظر للمرآة بشكل واضح، على يمينها ألقت نظرة جانبية كي تشبع رغبتها وفــضولها، رغبــة خارجية وفضول داخليان كانا قد تضخما، النظرة في المرآة كانــت خاطفة لكي تستطيع أن تلاحظ شيئــاً غريبــاً عليها وتفهــم

السبب الذي من أجله كانت تلك البائعة تتصرف بهذا الشكل الوقح، رغم أنها كانت واثقة من أنه ليس هناك أي عذر لمثل هذه الفظاظة المباغتة لتلك المرأة التي تقف الآن خلف صندوق النقود، عدائية بشكل مباشر، وميكنة النقود أمامها كامتداد لأداة حربية، وفي الوقت نفسه كدرع للحماية تحسبًا لأي مقاومة، على استعداد تام للتحرك بأسلحتها، ولا تستطيع صبرًا أن تراها، أخيرًا تغادر المتجر وتخلي لها المكان.

خرجت من المتجر بأقصى سرعة قدر ما استطاعت، كانت مشحونة ومعبأة كما كانت.

توقفت مصعوقة مشدوهة. المنظر لم يكن كما توقعت. العجوز لم يكن مستلقيًا في منتصف الرصيف؛ كان جالسًا مستندًا على الجدار. كان يستعد للاستيقاظ قبل قليل، دون أن يخرج من النوم تمامًا لكنه كان مستفيقًا لحد كبير. وعندما لملم نفسه جانبًا انكشفت القذارة التي كانت تليق به حقًا. فتات طعام، أكياس ورقية مقطعة، أوراق جرائد متسخة ومكومة، أعقاب سجائر، سوائل مسكوبة كان من المستحيل معرفة مصدرها، حقيبة مهلهلة

نصف مفتوحة تخرج منها ملابس مهلهلة ومتسخة، كتاب غليظ مقلوب بلا غلاف، جهاز راديو صغير فقد لونه من فرط قذارته وشكله، قبعة مضغوطة صارت أشبه بقلنسوة كنسية، مشط ومقص فوق بعضهما على شكل صليب، قشور وبذور فاكهة مأكولة.

خطت خطواتٍ نحوه. أوقفها ما سمعته أكثر من الذي رأته. العجوز توجه بشكل عنيف ومرعب نحو رجلين كانا قد نزلا من سيارة إسعاف دون أن يقتربوا منه، يتحدثون إليه من على طرف الرصيف، تقريباً من الشارع، يطلبون منه بصوت ودود أقرب إلى الهمس أن يتركهما يأخذونه.

وهو يجيب على أسلوبهم الودود الناعم بالسُباب. كان صوته راعدًا، حادًا، متحفزًا، وكأنه يطلق صرخة غضب نحو جمهور عريض يراه أمامه يتماوج على ربوة عالية، وهو على منبر وعظ على قمة عمود حجري، طالباً منهم أن يأخذوا الأسلحة التي أعطاهم إياها بعد أن باركها من أجل معركة الحق، في الوقت نفسه كان شيء ما في حركاته يبين شخصاً مطاردًا محاصرًا من جميع الجهات، سقط في الفخَ، ولم يبقَ له ولا أملاً وحيدًا في الهرب،

ويقاوم بكل قواه الطبيعية والميتافيزيقية خطرًا مميتًا يهدد حياته. كان يتحدث ويشير بكلتا يديه في الوقت نفسه بلا توقف، مرعوبًا وفي الوقت نفسه انتقاميًا، وعلى الرغم من أنه كان في وضع انهيار تام، كان يعطي الانطباع أنه ليس - فقط - واقفًا على قدميه، ولكن بأنه أكثر طولاً من رجُليّ الإسعاف الشديدين، كأنه ينتمي للعمالقة، ينبض حيوية وحشية، قبل قليل لم يكن يتخيل أحدٌ أن داخل هذا الجسد المحطم والذي يحرك كل أجزائه وأعضائه في هذه اللحظة كي يظهر، أنه ليس لديه أي رغبة في هذا المكان الذي يجلس فيه، وكأن هذا المكان كان عرشه، وأن من يجرؤ أن ينقله إلى مكان آخر سوف يدفع حياته ثمنًا لذلك. رجال الإسعاف مذهولون وربما محبطون من إلغاء مهمتهم، حيث إن سلطتهم قابلتها قوة رادعة جبرية منعتهم من إتمام مهمتهم، استمروا في عرض مطلبهم بـ الصوت الودود نفسه لكن بعد قليل توقفوا عن الكلام قانعين أن ليس هناك ثمة وسيلة تحركه من مكانه أو أن يتبعهم، ظلوا ينظرون إليه باستغراب وفضول كأن لم تكن لديهم مهمة عليهم إتمامها في هذا المكان.

مرتْ بين زئير العجوز وسيارة الإسعاف، وابتعدتْ مسرعة دون أن تنظر ثانية خلفها، انحرفتْ عند زاوية الطريق متجهة نحو موقف الحافلات.

لكي تنسى ما رأته في التوّ، أحضرتْ في رأسها سلوك البائعة في المتجر. ربما لم يكن العيب في البائعة ولكن فيها هي، ولكن فيما أخطأت هي؟ لم تفعل شيئاً يفسر أو يعطي سبباً لهذه الوقاحة، لهذه العداوة المكشوفة. ربما كان شيء آخر، لكن ماذا؟ شيءٌ في شكلها أو مظهرها. قفز إلى رأسها وجه العجوز بجروحه التي بانت مفتوحة من حدة صراخه، فقد تورمت بشكل أكبر وشوهت ملامحه بشكل أكبر، تضخمت شفتيه حتى وصلتا إلى أنفه، استطالت عظام وجهه ومنحته نضارة أشبه بنضارة وجوه أهل الجزر الغربية، حتى لسانه الذي كان يتكلم به جعلت منطقه غير مفهموم، خرج الكلام من بين شفتيه المتورمتين وكأن عدوى تقرحات جسده قد أصابته، وكأنه لهجة غير مفهمومة لقبيلة بائسة عتيقة في القدم. تساءلت؛ هل كانت هي تعطي الصورة نفسها أو الانطباع. ربما انحراف عتيق كهذا مكتوب وواضح على جبينها، هل تشابه كهذا

هو ما جعلها تشعر بشكل عفوي مباغت بصلة قرابة ما مع العجوز. ربما كانت هي وهو- في واقع الأمر- متشابهين إلى درجة أنهما في الأعماق لا يختلفان عن بعضهما، بل وأن ينتميا إلى الجنس نفسه أو القبيلة. توقفت وحملت كف يدها نحو وجهها، كأنما أرادت باللمس فقط تتعرف على شيء لا تعرفه، وكأن اللمس كالبصر، سيحقق ويتحقق مما لم تكن قد رأته من قبل، بعد قليل ستشعر على جلدها البثور والتشوهات نفسها في ملامحها أيضاً.

لو كان هذا ما رأته البائعة في المتجر، لو كان شيئاً ظاهرًا؟ أو ربما لم يكن ظاهرًا ولكنها كانت تعرفه، كانت تعرفه جيدًا وكانت تخفيه، كانت تخفيه لأنها تعرفه، شيء كانت تعرفه رغم أنها كانت تخفيه لدرجة أنها لم تعد تعرفه، رأته البائعة. أكان شيئًا له علاقة بما كانت تشتريه؟ أم، فعلت شيئاً دون أن تعي بغض النظر عمّا اشترته ولاحظته البائعة؟ أم أنها لم تفعل شيئاً، كانت تمسك بشيء وتخفيه، لكن البائعة استطاعت أن تراها، شيء لم تستطع في نهاية الأمر أن تخفيه من البائعة التي على ما يبدو كانت تراه منذ وقت لكنها صبرت، حاولت رغم ذلك أن تكون ودود قدر

الإمكان، قدر ما تتيح لها مقدرتها، أن تكون حمول قدر ما تتيح لها مبادؤها الأساسية. لكن ربما كان شيئاً، وهو أمر غير مستحيل، لم تفكر في أن تخفيه لأنها لم تعتقد أنه ازدرائي أو غير مواتٍ لها ومهين واستفزازي للآخرين، لكن البائعة فهمت ما كانت تخفيه في أعماقها ولا تريد أن تُظهره، كانت هي تعرف هذا جيدًا، ولهذا بالظبط لم تبغِ أن تعرفه نظرًا لخصائصه، كان هذا هو السبب الذي دون أن تبحث عنه، أخفت هذا الشيء جيدًا حتى نسيته هي نفسها، انتزعته من ذهنها تمامًا، لكن مرة أخرى رأته البائعة، رأت ماذا هناك، رأت ماكان مخفيًا، رأته ولم يعجبها، لكنها تضايقت لأن الأخرى لم تبذل أي جهد لتتعاون معها، أن تعترف به وتقلل منه، أن تنتقده، أن تواجهه كما واجهته هي، أن تعدّل منه قليلاً حتى تساعدها أن تمارس إيجابية ما في احتمالها، أن تشجع صبرها وتسامحها، لم تفعل شيئًا من هذا، لم تتجاوب مع البائعة، لهذا صارت البائعة عدوانية، هذا ماخلق لديها الرغبة أن تطردها، أن تطاردها، لهذا كان تعبير الاشمئزاز وكل إيماءات الازدراء على شفتيها.

فهمتها البائعة. لكن ماذا فهمت؟

الكراهية التي رأتها في نظراتها، أشعلت نارًا في ذهنها. شعرت بسرعة الإيقاع وقوة تحركه. "لو كانت لديها الآن الأداة المرعبة ذات الشفرات المتعددة، شفرة لكل عضو في الجسد، والتي كل شفرة فيها تقطع قبل أن تصل إلى المكان الحساس، حوافها الحادة تتوغل في العظام بسرعة متناهية، كانت ستثبته في نقاط عشوائية وتقم بتشغيله دون أي حاجة منها لتوجيهه، كمناورة محكمة، كتكتيك حربي على أعلى درجات الجاهزية؛ الشفرات التي ستصيب وتصرع الكعوب والأكواع، ستفصل بدقة وفنية عالية الجسد عن الحوض والرقبة، ستدخل إلى منطقة البطن والأمعاء، الترقوة والظهر، ستسرح في مرتفعات المؤخرة ومنخفضاتها والأعضاء التناسلية، ثم ستتناوب على مرتفعات ومنخفضات الوجه، ستفتح الجمجمة، ستقشر الجمجمة بأكملها، ستقطع الجسد أشلاء، ستهرسها، بعد أن تفصل الأظفار والأسنان والعيون والشعر ستجمعها وتضعها في أكياس جلدية معلقة على جوانب الأداة المتعددة الشفرات، رغم صغر حجمها فإنها مرنة

وتتسع لأكبر من حجمها بشكل غامض، ستنقلها وتفرغ الحمولة في خندق عميق كانت قد حفرته هي بنفسها".

بينما كانت تقترب من المحطة، كان الجمع حولها يزداد زخماً وكثافة. الأغلبية كانت من النساء والأطفال، بعضهن كن مع أزواجهن. " كانوا يحملون كلهم صناديق كبيرة وثقيلة، كأنهم يقومون بنقل محتويات منازلهم. حتى الأطفال لم يستثنوا من هذا الحمل الثقيل. الرجال كانوا كأنهم يتبعون زوجاتهم اللاتي كن متقدمات وبحماس شديد تعلنَّ بقوة عن قرارهن وماهو المفترض فعله، وماهي الخطوة القادمة، وماهو التصرف الصحيح الذي بموجبه ستأتي مصلحة الجميع. المشهد، كان المشهد أشبه بتعبئة جسد يستعد لاتخاذ قرار أهم القفزات التي هدفها كان غير مرئي. كان الجميع يصرخ في الجميع أو في لا أحد؛ كانوا يشيرون بأيديهم المحملة بالصناديق التي كانت ترتفع وتنخفض مع تحركاتهم في خطورة أن تسقط في أي لحظة وتتبعثر محتواياتها على الرصيف، وهو الأمر الذي كان يدعوهم للصراخ ولإصدار أصوات غريبة تشبه تلك الأصوات التي تصدر عن أجهزة معدنية أو من أفواه حيوانات تُعذب بشيء حاد وقاطع. كانت الثياب التي يرتدونها توحي بأنهم اشتروها قبل

قليل، وتلك القديمة التي كانوا يرتدونها قد ألقوا بها في المكان نفسه الذي بدلوا فيه ثيابهم. نجح بعضهم في أن يمسك بإحدى يديه ساندويتشًا أو قطعة من الحلوى أو علبة من المياه الغازية، وفور انتهائهم منها سواء كانت علبة المياه الغازية أو قطعة الورق التي تغلف الساندويتش أو الحلوى كانوا فقط يتركونها تتدحرج بجوارهم أو أمامهم، كما لو أنها انزلقت من بين أيديهم عن طريق الخطأ، أو كأنهم لم يكونوا هم حاملوها في أيديهم قبل قليل. وجوههم، غير كونها في حالة فورانٍ وهياج، كان القلق يعتليها؛ كانت تنظر حولها وإلى مشترواتهم كما لو كانت تريد التأكد من أنهم قد أخذوا كل شيء معهم، وأن هناك حيث ستذهب بهم الحافلة- أو أية وسيلة موصلات أخرى- لن ينقصهم أي شيء من الأشياء التي سيحتاجونها بكثير من القلق وكثير من الشغف؛ بالفعل، كان منظرهم يشبه أناس أصابهم توتر شديد من إمكانية أن يكونوا قد تركوا شيئا مهما خلفهم، ربما قد نسوا شيئا غاية في الأهمية، شيء له احتياج أكبر، أكبر قيمة من هذا الشيء الذي استطاعوا أن يحملوه، وربما سينبغي عليهم الآن في اللحظة الأخيرة قبل أن تأتي وسيلة الموصلات التي ستقلهم أن يهرولوا ليجدوا هذا الشيء، دون أن يعلموا تحديدًا أين سيجدوه، دون أن يعلموا أين سيبحثون عنه، وكأن الطريق أو الرحلة

القادمة ستكون الأخيرة بالنسبة لهم، وكأنهم هناك حيث سيصلون لن تكون بيوتهم إنما مكان آخر يجب عليهم أن يجدوه تحت وطأة ظروف لا تحتمل، أن يحاولوا التشبث بالحياة ولهذا السبب كان ضروريًا ومسألة حياة أو موت أن يحملوا كل هذه الأشياء الثقيلة كأحجار كريمة ، مثل ذكريات عائلية ثمينة، مثل أيقونات مقدسة، مقارنة بهذا الشيء الذي نُسى كل هذه الأشياء تبدو تافهة بلا أهمية لرحلة بعيدة بلا أي نهاية معروفة أو مؤكدة.

توقفت الآن وراحت تنظر إلى بنت. تشبه الأولاد. ربما كان ولدًا يشبه البنات، أو بنتًا كانت ولدًا أو العكس. حدقت بها وبدا عليها توترٌ مشابه. تبادلتا نظرات عابرة ولكن مدققة. حولت نظرها عنها، بعد قليل راحت تنظر إلى المكان فكان نفسه هناك طفل آخر، وجهه أشبه بعملة معدنية كلا وجهيها على الناحية نفسها، لم يكن الطفل يزيح بصره عنها. راحت تنظر له هي الأخرى بثبات أكثر ربما لأنه كان ينظر إليها هو الآخر بالطريقة نفسها. اعتلت وجهه ابتسامة، فكأنهما تمددت شفتاه بشكل غريب غيّر ملامحه؛ حرر إحدى يديه التي كانت تحمل الصندوق الذي وضعه بين قدميه وراح يحك أسفل حزام بنطاله الذي كان ينفتح مثل الجيب؛ كان يحك

وكأنه يناضل باحثا عن شيء ما ليجذبه للخارج كي يُريها إيـاه أو لينقذه، لكي يجده لكنه كان يحك يده أكثر فأكثر وبـشكل أكثـر عنفا، وهو ينظر إليها باستمرار صوب عينيها بالابتسامة نفسها الـتي مطت شفتيه حتى جوانب رأسه من الخلف؛ مشكلاً ابتسامة مستديرة تبتسم إليها من أي جهة تنظر إليها. فكرت في أن تصفعه. صفعته في ذهنها. صفعته على فمه المتمدد الذي يصنع تعـابير غريبـة دون أن يتحرك. صفعته مرات عديدة، صفعته بكل ما أوتيت من قوة، وكأنها تضرب بالكرباج ظهر حيوان صغير شرس إلى أن أنهـك جنونهـا. توقف الطفل فجأة عن الابتسام، توقف عن الحركة التي كان يقـوم بها، ثم بدأ في البكاء وهو ينظر إلى أبويه بأن هذه المرأة ضربته، كـان يبكي وهو ينظر إليها مشيرًا نحوها بيده الحرة التي كانت تنتهي بإصبع طويل، كأنه أراد أن يثبتها هكذا في مكانها. الأبوان اللـذان رأيـا المشهد بينهما، التفتا متفاجئين نحو الطفل. هو الآن يـصرخ بـشدة مرددًا بين تشنجات بكائه بأن هذه المرأة قد ضربته، وقـد آلمتـه، ووجهي العملة امتزجا واصطفا على وجهه، وراح كل وجه منـهما يأكل الآخر، راحا يتمددان خارج حدود الوجه، ويعودان إلى المركز حيث كان يحاربان مشكلَين كتلة جميلة لها ثقب في المنتصف يـصدر منه صوت عالٍ لاصطدام حِراب.

التفت الأبوان نحوها. ليس الأبوان فقط ولكن كثيرين آخرين أخذوا يتهامسون فيما بينهم قائلين أنها صفعته بكل قوتها عدة مرات، وأنها راحت تضربه إلى أن خارت منها قواها المهوسة، اشتعل وجهه كأن الحمى أصابته، كانت آثار الأصابع واضحة على وجهه، كادت أن تكسر له أسنانه، الدماء سالت من فمه وأنفه، كان من الممكن أن تصيبه بضرر كبير، الطفل البائس لم يكن في حالة جيدة على الإطلاق، من أين لها كل هذا العداء وكل هذا الشر وكل هذه الكراهية، لقد كادت أن تقتل الطفل.

انتظرت كيف سيسألونها، كيف سيطلبون منها أن تشرح لهم، دون أن تعرف عن أي شيء بالضبط لابد أن تشرح وتفسر، ربما سيجدون هم نقطة التقاء أو ربط وصلة بين بكاء الطفل المفاجئ وبين الحقيقة، سيفهمون تلقائيًا ما الذي حدث، كان الأمر واضحًا جليًا، بديهيًا.

شعرت بأنها تُدفع من الخلف. فأخذت بضع خطوات مترنحة في اتجاه أبويّ الطفل، اللذان كانا ينظران إليها بريبة وتفحص شديدين، حاولت أن تتشبث بشيء، الأغراض التي ابتاعتها انزلقت

من يديها، وكذلك حقيبتها الصغيرة، لكنها اســتطاعت أن تحــتفظ باتزانها وتقف ثابتة على قدميها. رغم ذلك تأخرت أن ترى الــذي حدث حولها، حدثت أشياء أخرى في التوقيت نفسه، نظرت خلفها لترى الذين دفعوها، والد الطفل راح يركل أغراضها المتبعثــرة، الأم التقطت حقيبتها من على الأرض، آخرون يكيلون لها السباب يمينًــا ويسارًا، سمعت مرة أخرى الكلمة نفسها التي وعدت نفسها بأنها لن تسمح أبدًا لأي أحد أن يقولها لها، بصق عليها أحدهم، رأت أيادي كثيرة تمتد نحوها بأصابع متشنجة نحو شعرها ووجهها، انحنت لتجمع أغراضها التي رأتها مبعثرة على الأرض؛ مما أشعرها بحــزن غريــب وبانهزامية حمقاء، دفعها آخرون مرة أخرى، لكن هذه المــرة بقــوة أكبر، كادت أن تقع إذ إنها ترنحت فجأة إلى الأمام، إلا أنها وجــدت اتزانها مجددًا، نهضت فرأت حقيبتها في يدي الأم، فتحتها ونظــرت داخلها، في هذه اللحظة بالضبط تلقت اللكمة الأولى من الأب الذي استشاط غضبًا عندما رأى يدها تمتد نحو حقيبتها لتأخذها من بــين يدي زوجته التي كانت تضحك بشدة مما رأته داخل الحقيبة، التفتت نحو أغراضها لكنهم راحوا يختطفونها ويفتحونها بعد أن أصابهم هياج

شديد مما يرونه، إذ جعلهم ينظرون إليها بقرف واشمئزاز، لكنه من نوع خاص ومحدد، وكأنهم قد طُعنوا في كرامتهم فظهر عليهم أنهم لا يحتملون وجودها، ولا يحتملون منظرها ولا رؤيتها، شعرت بألم في ظهرها، ضربها أحدهم في وسطها، وآخر خلف رقبتها، الآن فقدت تمامًا اتزانها، استسلمت، لم تجد ما تتشبث به، التفت قدمها مع أرجل أحدهم؛ فدارت حول نفسها ثابتة على أحد أصابع أقدامها والذي كان على الأرض؛ فخارت واقعة.

تجمع الكثيرون حولها، يبدو أن هناك من جاءوا مهرولين بعد أن شاهدوا المشهد من بعيد، لم تعد تميز بينهم وبين الأبوين، انحنوا جميعًا فوقها ليضربوا، حتى إنهم كانوا يستخدمون حقائبهم وصناديقهم في الضرب، كانوا يضربونها على وجهها وصدرها مرارًا وتكرارًا، جذبوها من فستانها؛ وراحوا يركلونها في جوانبها، لم تعد لديها قدرة أن ترى بوضوح، فقد تداخلت الوجوه في بعضها كما لو أنها صارت وجهًا واحدًا، أو أنها كانت تتبادل الأدوار والأماكن، بدا لها كما لو أن مقصًا يقترب منها، مشط مر من أمام عينيها، أخذ المقص يقص شعرها بشكل عشوائي وعنيف، كان المقص يغرس

بعمق بلا أي حرفية، وحك جلد الجمجمة أكثر من مرة، شيء حاد مثل خاتم ذى حجرة واحدة، أو ساعة يد ضخمة جرت على خدها غارسة في اللحم، أحدهم نزع عنها حذاءها ودسّه في حقيبة، ثم راح بأظفاره يزيح جوربيها، كثيرون أخذوا يمزقون ثوبها وربطوا ذراعيها وأقدامها بأسداله الممزقة. كما لو أنهم كانوا يعدونها لشيء ما، كما لو أنهم يعدونها للذهاب إلى مكان ما، لم تفهم ماذا أو إلى أين.

قلبوها على وجهها، ألم حاد توغل في ظهرها، وكأنهم شقوه لنصفين بآلة حادة، وأمسكوا بالداخل هيكلها العظمي كاملاً، وجذبوه إلى أعلى ثم قذفوه بعيدًا، فمها امتلأ بشيء بدا لها أنه يخصها، إلا أن طعمه لم يرق لها، وفي لحظة ظنت أنها رأتهم جميعًا يرتدون وجهها الذي صار مكانه فارغًا.

أم الولد أصدرت ضحكات عالية متقطعة، وأعطت حقيبتها الصغيرة إلى أحدهم الذي مدَّ يده بقوة ليأخذها، كان ينتظرها بنظرة شامتة، ثم راح يقهقه هو الآخر عندما رأى محتوياتها. أفرغ محتوياتها على الرصيف، ثم سحب بطاقتها الشخصية من كومة الأشياء المتبعثرة. بينما كان ينظر إليها، انحنى الآخرون لينظروا. لم يُسمع

شيء. وكأن الشيء الذي كانوا يحاولون التعرف عليه فرض عليهم حداد الصمت، شيء مكتوب بلغة ليس فقط أنها غير مفهومة، لكن كانت أول مرة يرون شيئًا كهذا، لم يفهم أحد من طلاسمها العجيبة شيئا كما أنها لم تذكرهم بشيء وأصابهم الارتباك وهم يحاولون أن يفكوا شفرة الرموز المعقدة، مما جعل إثارتهم وغضبهم يحتدان أكثر، وجعلهم يفقدون ما تبقى لديهم من صبر.

هذا الذي راح يقلّب في البطاقة الشخصية بين أصابعه؛ باحثًا ليجد شيئاً مألوفا أو معروفًا، التفت نحو اثنين آخريّن، وتفاهم معهما ببعض الإيماءات والإشارات، وكأنه قد تولى طوعًا المهمة، أو أنه قد مُنح سلطة وصلاحيات كاملة من الجميع ليتولى الأمر، ثم انحنى فوقها وسألها شيئًا، بينما كان عرقه يتلألأ على جبينه مشكلاً رمزًا ما؛ بدا لها أنه يسألها عن محل سكنها، وكانت تحاول بإجابتها التي ستعطيه أن تجعله يؤازرها وليس فقط، بل ليصحح كل مافعلوه بها، أو كما لو أنه هو نفسه لم يكن له دور في كل ما حدث، محض شفقة، محض غفران إيثاري وحب للآخر، ممزوجان بشيء من غضب إلهي لما يمكن أن يقع على الإنسان من أخيه الإنسان، أن يهرول ليقدم أي

مساعدة يحتاجها أحد وقع عليه ظلم أو تعذيب أو يموت في منتصف الشارع.

أوقفوا سيارة تاكسي ووضعوها داخلها. جلس هو بجوار السائق، الاثنان الآخران بجوارها.

مثل عجلات تغوص في قضبان وتذوب، تعرفهم، ينحنون فوقها، يفتحون قمصانهم، يشيرون لها إلى العرق على صدورهم، رأتهم قبل ذلك مرات عديدة، خطوط تماثيل، لم تتحدث قط معهم من قبل، شعيرات تشكل نجمة سوداء على صليب مذهب، يلعقون الدماء كما لو أنها الشيء الذي كانوا ينتظرونه، كما لو أنها كافية لتشبعهم، نساء بأياد ضامرة راحت تربت على رأسها المقصوص الشعر حتى جذوره، لا تدخلوا كلكم، المكان لا يتسع، سألوها إلى أين ذاهبة وماذا هناك، لهم رائحة قوية، افتحوا، لا تدخلوا كلكم في الوقت نفسه، الباب والنافذة بسرعة، ليس هناك مكان لكن، هذا بسبب الشارع المغلق فالهواء لا يدخل من أي مكان، شرائط سميكة مقصوصة من حقائب معلقة مثل أوراق الزينة التي تعلق في الأعياد من الشرفات وتصل حتى تراب الشوارع، لا تضحكوا هكذا، كلهم

يحشرون ألسنتهم في فمها، لا تضحكوا هكذا لا، طفل يحمل صورة فوتوغرافية، وينظر إليها من خلال الصورة مباشرة في عينيها بنظـرة تحمل تعبير رعب وتساؤلا، الطفل يرتدي قبعة كنسية ويحـك يـده الحرة بين قدميه، أطراف أصابعه بها أغطية معدنية، مـتى ستـصل، آخرون وآخرون يصعدون، لا يدخل أي ضوء من النوافذ الزجاجية، فقط يسمع صوت صرير عجلات سيارة التاكسي علـى القـضبان المتهرئة، كلهم يتشبثون بالمقابض حتى لا يـسقطون، لا تـضحكوا هكذا، أنت تضحك هكذا، أنت تضحك هكذا، أقدامهم الحافيـة تغطيها صنادل بلاستيكية تهرول على سقف التاكسي كي تنجـو، التراب يعلو أمام بوابة المدخل، القضبان شكلت هيكلاً عظميًا واقفًا يضحك مشيرًا إلى حقيبة محترقة.

أنزلوها من سيارة التاكسي وصعدوا بها إلى المـترل. فتحـوا الباب وألقوا بها في الممر. أغلقوا خلفهم خارجين. في الشارع ألقـوا بالمفاتيح في بالوعة.

٢٠٠٥-١٩٩٨

التحول والتحول الآخر

أو

تحول التحول

تفسير خاص من خلال قراءة خاصة

خالد رؤوف

هذا التحول الملتبس هو الارتداد: امرأة تخرج من بيتها ومقصدها هو الوصول إلى مكان حيث ستقضي حاجة ما، وعندما تنتهي من قضاء حاجتها تعود مرة أخرى إلى بيتها.

التحول المزدوج لهذه المرأة من نقطة معينة في المدينة إلى نقطة أخرى، ثم إلى نقطة البداية مجددًا، للوهلة الأولى يبدو أنها تملك شخصية جريئة، عنيدة، لديها استقلالية اتخاذ القرار، وأيضًا طبقًا للقرار ومكانته في حياة تلك المرأة، ونظرًا لتعلق الأمر باستراتيجية ما

وتصل إلى حد الممارسة الطقسية، والتي تمارس في أوقـــات محـــددة، وتشكل جانبًا خاصا بامتياز ومقياس سرعة في برنامجها الشخـــصي. ناهيك عن أن هذا الفعل وهذه الممارسة لا تعرف أو تسمى أبـــدًا في هذا النص، وكأنه لا يلزم، أو أنه ليس هناك بد أن يعرف بها أحـــد ولا حتى المتلقي نفسه الذي هو بالضرورة لن تكون له أي فرصة في كل الأحوال أن يكون شاهدًا على الحدث أو السر، أو أن يتـــدخل في سير أمور حياتها ليغير شيئًا مهما فيها.

هذه الشخصية الحرة التي تبدو معالمها في قرار خروج هذه المرأة من بيتها، وفي كل ما يتعلق بذهابها إلى مقصدها، إلى كل مـــا يتعلق بعودتها إلى نقطة بدايتها؛ مما أعطى لهذه الشخصية دور التـــابع الذي يخضع تمامًا لصيغة المبني للمجهول لتصريف فعل التحول؛ حيث يتم إلغاء دور الفاعل تمامًا في هذا الفعل الـــذي كـــان واضـــحًا في النصف الأول من الحكاية وهو: أحول أنا نفسي بكامـــل قـــدرتي ورغبتي، وهو ما يأتي على العكس تمامًا في صيغة المبني للمجهول دون أي رغبة أو أدنى مشاركة في اتخاذ القرار، لم يعد حتى مجرد تابع بـــل شيء جامد يتم التحكم فيه تمامًا، وأيضًا بشكل كلي وجذري مثلما

يحدث في الحكاية، بل يمكن أن نسميه نهائيا بكل ما تعنيه الكلمة، ومايحويه إدراكها البغيض: «الحل النهائي».

لكن "التحول الآخر" - لأنه يحتوي على البعد النهائي لسرد الحكاية - يحتوي على قوة مؤثرة على التحول الأول؛ وتقضي على كل ما له علاقة بحرية اتخاذ القرار في شخصية المرأة. وكأن التحول الآخر بات الاستمرار والتطور الطبيعي المقدر لها، أو كأن الأول هو الاستعداد للآخر، أو أنه كان المقدمة للآخر.

وهكذا، الخروج الذي لم يكن الأول لهذه المرأة من منزلها، تجند شخصية بعيدة تمامًا عن كونها شخصية حرة ومستقلة: النهاية التي يؤول إليها هذا الخروج - يغير من قرارها في الخروج أساسًا، ويحوله إلى مقدمة (هناك مغزى لتلك الأصوات المختلفة التي تسمعها المرأة في طريقها نحو محطة الحافلات) تطور مزدوج مغاير محدد قدري، لكنه لا يمكن أن يحلله أحد بمصطلحات أو معايير عقائدية دينية، ولكن مثل تسلسل كامل للأحداث يظهر بعد أن تنتهي، منتظرة بعد ذلك الوسائل الشمولية للنظر والتحليل التي تتيح بعد ذلك استيعاب الصورة كاملة.

لسنا هنا بصدد التعامل مع زمن صحفي أو مع وصف وقـــائع حادثة واقعية، ولكن مع نص مجازي مختلق أي نـــص أدبي. الأدب، الذي هو التحول والمجاز في حد ذاته، إذ إنه يطرح آلياته وأدواتـــه ثم يصبح بذاته حاملاً للتحول؛ حيث إنه في حالـــة الأدب نـــوع مـــن الإبداع يحتوي موضوعه ويكون هو الأدب نفسه؛ أي إنه يختبر أمـــر التحول نفسه، مما يعني أن التحول هنا يظهر بـــشكل متحـــول أي بشكل مجازي.

في الجزء الأول من القصة كانت وسيلة التنقل هي الحافلة، في النصف الثاني كانت سيارة التاكسي، في الجزء الأول المرأة تـــستقل الحافلة لتنقلها إلى مقصدها - في الجزء الثاني كان آخرون يضعونها في سيارة التاكسي التي ستذهب بها إلى بيتها؛ في الجـــزء الأول يبـــدو واضحًا على المرأة أعراض صراع وتنافسية تجاه المحيطين بها من البشر، في الجزء الثاني تلك الأعراض يُعبر عنها بشكل عنيف جدًا، ومتطرف للغاية من قبل الآخرين، في الجزء الأول الوضع رغم ملامح الاكتئاب عند المرأة ورغبتها في ردود الفعل والتصرف العنيف فإنها سلمية، في الجزء الثاني رغم الأجواء الخفيفة نوعًا، يتحول الوضع بشكل مفاجئ

وحاد إلى عدوانية واعتداء صارخ يخرج عن السيطرة؛ في الجزء الأول ينتهي بممارسة يومية اعتيادية (أمر يتعلق بمشتروات امرأة). في الجزء الثاني ينتهي الأمر بمشهد ممارسة موت (يوميّ). على الرغم من هذا في الجزأين الأول والثاني ربما أقل في الجزء الأول من الثاني، تكثر لحظات الذروة الداخلية (بالنسبة للمرأة) في الجزء الأول، والخارجية (بالنسبة للجموع) في الجزء الثاني؛ لحظات الذروة تلك بتشابهاتهما الكثيرة تشكل الجزأين، وتؤكد على الاعتماد الضمني المشترك والتضاد والتشابه فيما بينهما، رغم اللااختلافات الواضحة التي لم تكن قط محض صدفة. جزآن يشبهان تمامًا وجهي العملة، إلا أننا هنا كما يذكر في أحد مقاطع النص بصدد قطعة عملة لها وجه واحد.

إذن التحول هنا، بأي شيء معني؟

التحول ينقل شيئًا واحدًا. هو الشيء نفسه لكنه ذو وجهين، وهذان الوجهان بدورهما - وإن بديا مختلفين- يشكلان جسدًا واحدًا؛ وهذا الشيء يعني أن الأشياء التي تبدو متضادة متنافرة. إلا أن

هذا التضاد يحمل كل جزء فيهما عناصر من الشيء الآخر المتضاد، وإن بدت هذه العناصر أيضًا غريبة فيما بينها.

بشكل نظري إلا أنه ملموس، كيانات متناقضة مثل الحرب/ السلام، جمعي، ضِمْني/ خارجي، يومي/ والعكس تمامًا، الواقعي وغير الواقعي ولا المتوقع/ الزهد/ الإسراف، المواطن/ خرق الخصوصية/ المجهول وغير المعروف، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة ربما تشغل وحدة واحدة/ وليس فقط تتبدل، أو أنها أزواج متقابلة في تشبيك شعبي، على سبيل المثال الفظاعة والوحشية هما شيئان مرتبطان بالانفجار النفسي مثلما في لوحة جريكو، حيث يدرك في واحدة تشابهه مع الآخر، ويكون الآخر هو نسخة منه، ولا يستطيع الوجود بدونه، وهذا التناسخ يبدو على نحو خفي، حيث يكونا نسخة طبق الأصل بالأخير، لكن بوجوه مختلفة ووسائل تعبير مختلفة أيضًا، الوحش البحري والإنساني لا يتباعدان، بل يتحدان، ولا ينقسمان عضويًا بحيث يتطلب أن يبذل الشخص محاولات وجهد كي يلحظ الفوارق الموجودة بالفعل، ولا يندهش من تبادلهما للأماكن والوظائف؛ وفي هذه النقطة بات ضروريًا التذكير أو الإشارة إلى

مشهد العجوز المنهار على الرصيف، هذا المشهد وهذه اللقطة التي واجهتها المرأة مرتين؛ مرة في طريقها نحو مقصدها، ثم مرة أخرى عند عودتها، لكن كل مرة كانت تقريبًا مختلفة تمامًا عن الأخرى، وبالتالي فهي تولد مشاعر وسلوكا متناقضين للمرأة في كل مرة نحو العجوز الملقى على الأرض، عندما جاءوا ليساعدوه، تلك المشاعر التي كانت في المرة الأولى محض تعاطف ورحمة، تصبح في المرة الثانية مشاعر غضب واشمئزاز، وكأنها لم تكن قط موجهة نحو الشخص نفسه الذي على الرغم من كل شيء، هذان الجانبان متجاوران مثلما يحدث ويتجاور رمزان منقوشان على الآنية نفسها.

الآن حيث إن البعد الزمني يضفي ظلاله وتوضيحاته ويوجه الانتباه نحو جهة لم يكن من المتوقع أن تصل إليها، التحول الذي يسيطر على رؤيتي بعيدًا عن النظرة الشخصية والجمعية التي بعدها الآخر هو التاريخ؛ أعني التاريخ باعتباره تحولا بالمعنى الحرفي والمجازي أيضًا: المعنى الحرفي دقيق ومباشر- وسائل الموصلات المختلفة (السيارات، القطارات، العربات) التي تتنقل بين الأدخنة والصحروات والجثث جراء القصف والرصاص في كل أنحاء البسيطة،

محملة بكل أشكال البشر من جموع الأبرياء والمشبوهين، لكن في كل الأحوال يضربهم البأس والفقر، والذين يتم توجيههم ككم مهمل يتم تحيده، كي يتم إلقاؤه في الخنادق، وهم إما أنهم مستوطنات لاجئين، أو قبور جماعية أو معسكرات اعتقال عسكرية؛ المعنى المجازي للتحول يحتاج إلى نوع آخر من المحاولة إلى نطاق آخر من الجرأة؛ كي يصبح مقبولاً.

عجلة التاريخ كما ورثنا أن نتصورها بدورانها بحركاتها الدائرية، ربما يكون هذا هو بالضبط العملة ذات الوجه الواحد مثل الميداليات القديمة المنقوش عليها وجوه الشخصيات القيادية والرمزية، في الواقع؛ إن المنقوش هو جوهر الهوية الإنسانية المتشابكة المعقدة التي تنتمي بدورها إلى الشيء الواحد ونقيضه، وهما لا يستطيعان إلا أن يكون لهما الحق في الحصول على مساواة طبيعية واضحة، وفي هذه الحالة لا ينبغي أن يكون التفسير والتقييم قائمًا فقط على معيار التضاد، أي الاستثناء أو الإقصاء الديني مثلاً، أو الأحكام أو الإدانة بشكل عام، بمعنى آخر معيار الخير المطلق والشر المطلق، أي المألوف وغير المألوف، لأن هذا سوف يؤدي بالضرورة نحو فهم آخر مختلف

لهؤلاء الذين لديهم فهم مختلف خاطئ أساسا، وسيخلق ويكرس عداءً محتومًا بين المعسكرين، وهو أمر ربما يبدو هينًا، لكنه في كل الأحوال جوهري وحرج وحاسم لإعادة إجراء حوار ومفاوضات بين الشخص والشخص نفسه.

لكن ربما في النهاية، هذه العملة ذات الوجه الواحد التي تحمل الوجه المنقوش الوحيد، تحل أيضًا الشيء كله وعكسه كله، ربما يكون هذا الأمر هو التحول الوحيد الذي يوجد وبشكل مزدوج، أي أصل الشيء، بشكل طبيعي للغاية ومحتفظًا في الوقت نفسه بضده وبشكل طبيعي أيضًا، بالمعنى المجازي والمعنى الحرفي أيضًا.

المؤلف فى السطور:

ذيميتريس ذيميترياذيس

ولد في مدينة ثيسالونيكي باليونان، ودرس السينما والمسرح في بروكسل من عام ١٩٦٣م وحتى عام ١٩٦٨م.
كتب في عام ١٩٦٥م أول عمل مسرحي له . (ثمن التمرد في السوق السوداء). وقد أخرجها وعرضها المخرج الفرنسي ***Patrice Chereau*** في عام ١٩٦٨م على مسرح ***Théâtne de la commune d'Aubervilliers*** في باريس.

في عام ١٩٧٨م نشر أول عمل نثري له (أموت وطنًا).

وفي عام ١٩٨٠م نشر وحدة شعرية من أربع أجزء، وفي عام ١٩٨٣م العمل المسرحي (كنيسة الدم الجديدة).

تلى بعدها في عام ١٩٨٦م: الأعمال النثرية (الإحالة، الإنسانية - الألفية غير المكتملة) ثم تلاها.. (التمهيد للألفية القادمة).

قوائم ٥-٨ عمل شعري متصل في العام نفسه.

ارتفاع - في عام ١٩٩٠م .. عمل مسرحي.

الانسجام المبهم للقرن القادم (نص مسرحي) في عام ١٩٩٢م.

قوائم ٩ .. نص شعري من العام نفسه.

التعريفات - متوالية شعرية في عام ١٩٩٤م.

بداية الحياة ١٩٩٥م - نص مسرحي، تم تقديمه عرضا مسرحيا في اليونان في العام نفسه.

النسيان وأربع مونولوجات أخرى. في عام ٢٠٠٠م.

النسيان تم عرضه في باريس في عام ١٩٩٨م - وكذلك في عام ٢٠٠١م في باريس مع مخرج آخر وعلى مسرح آخر، وفي عام ٢٠٠٠م تم تقديم النص في عرض مسرحي يوناني في اليونان.

تمت ترجمة العمل إلى الفرنسية في عام ٢٠٠٢م إصدار (***Les solitaires Intempestifs***)، كما حصل عمله "الإنسانية" على جائزة الدولة في عام ٢٠٠٣م.

النص المسرحي (إجراءات لتسوية التنازعات) تم تقديمه علـــى المسرح في اليونان في عام ٢٠٠٣م.

في عام ٢٠٠٣م، تم عرض رواية (أموت وطنًـــا) في شـــكل مسرح من إخراج يوانيس كوكو على مـــسرح ***Round-point*** في باريس، وكذلك في فلورنسا على مسرح ***Teatro di Limonaia-*** كما تم عرض النص(تدويخ الحيوانات قبل الذبح).

قام بترجمة أعمال لكل مـــن: ***J. Genet, M. Blanchot, G. bataille, Nerval, Balzac, W. Gombrowicz. B.-M. Duras.*** كما قام بترجمة أعمال يوربيذيس، وإيسخيلوس عن اليونانية القديمة.

بدأ في التعاون منذ عام ١٩٨٠ مع دار النشر (***Agra***)؛ والتي نشرت أكبر قدر من أعماله وترجماته.

المترجم فى السطور:

خالد رؤوف

ولد فى ٦ يوليو ١٩٧٤م في الإسكندرية بـــ جمهورية مصر العربية.

الدراسات:

درس الآثار اليونانية الرومانية بجامعة الإسكندرية وجامعة أثينا.

درس اللغة اليونانية في جامعة أثينا، وحصل على دبلوم الترجمة من الجامعـــة نفسها، وكذلك دبلوم في التـــرجمة من مدرسة الاتحاد الهلـــينى الأمريكي.

درس اللغة الإيطالية في مدرسة *KAPATO*، وحصل على شـــهادة في اللغة الإيطالية معتمدة من جامعة روما.

حصل على إجازة الماجيستير والدكتوراة بمرتبة الشرف من جامعة شيكاغو في تاريخ الفن الكلاسيكي.

حصل على دبلومة التسويق والإدارة من جامعة شيكاغو *B.S.C*،

ودرس الدراما والمسرح في مدرسة الدراما القومية في أثينا التابعة لوزارة الثقافة.

حصل على العديد من الدورات التدريبية والشهادات في التمثيل المسرحي والسينمائي والإخراج في عدة مدارس فنية في الولايات المتحدة الأمريكية.

عمل بإدارة عدد من الفرق المسرحية اليونانية *FORNO - ART SYNDYCATE*.

يعمل باحثاً في جامعة شيكاغو ومشرف على رسائل الماجيستير في تخصص تاريخ الفن الكلاسيكي والآثار اليونانية الرومانية.

ترجم من الإنجليزية إلى اليونانية (الحب الأول) لصمويل بيكيت، التي قام بعد ذلك بإعدادها للمسرح الشاعر اليوناني ثانوس ستاثوبولوس – ثم ترجمها من اليونانية للعربية لفرقة *ART SYNDYCATE*، التي شاركت بها الفرقة في مهرجان المسرح التجريبي في عام ٢٠٠٤م.

ترجم من الإنجليزية للعربية مسرحية تينيسي ويليام (الحيوانات الزجاجية) لفرقة المدينة للفنون الأدائية والرقمية.

ترجم بعض قصائد لأونجاريتي من الإيطالية للعربية.

نشر له مجموعة من القصائد باليونانية في بعض الجرائد اليونانية وبعض المجلات المتخصصة.

ترجم مختارات شعرية من اليونانية للشاعر اليوناني الكبير يانيس ريتسوس صدرت عن دار جدار للثقافة والنشر.

له تحت النشر عدد من الأعمال الإبداعية المترجمة (شعر- رواية) عن اليونانية.

عمل مترجمًا محترفا ومترجما فوريا ومرشدا سياحيا في اليونان مايقرب من ٧ سنوات.

عمل في بعض القنوات التليفزيونية اليونانية.

عاش مايزيد عن ١٦ عامًا من حياته في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

يشارك حاليا في الإدارة في دار جدار للثقافة والنشر، ومؤسسة المدينة للفنون الأدائية والرقمية.

يقيم في الإسكندرية.

له بعض الأعمال تحت النشر بالتعاون مع المركز القومي للترجمة.

التصحيح اللغوى: صفاء فتحى

الإشراف الفنى: حسن كامل

هل سأكون نفس المرأة عندما أعود؟

فور أن خرَجت، سَمعَت صوت ضحك. كان الصوت معدنياً مدوياً، لم يبدُ لها في البداية أنه صوت ضحك، صوت صفير أو حفيف لم يكن مصدره إنسان، لكن زمنه الطويل غير الطبيعي أعطاها الوقت لتفهم أن ثمة شخص يضحك؛ رغم كل ذلك وبينما كان الصوت يستمر بنفس الرنين والتوقيت دون أن ينقص، كان يزداد لديها الانطباع أنه لم يكن ضحكاً، بل كان يتشابه بدرجة أكبر مع صرخة حيوان يُعذب بآلة حادة بضراوة.
هذا العويل أيقظ داخلها الرغبة للحظة أن تهرول؛ كي تساعد ذلك المستغيث بهذا الشكل الغامض، كأنه شخص عُذب ويُعاني على نحو لا يُحتمل.
لكنَّ استمرارية الضحك، وزمنه أيضاً الذي يمكن أن يصل إلى الإعجاز الرياضي؛ جعلها تتأكد لمرة أخرى مدى استمتاع ذلك الضاحك بهذه الطريقة، غير مبالٍ بكم الاستفزاز الذي يولّده لدى الآخرين، ربما كان يتسلى بالاختبار الذي يضع فيه أعصاب الآخرين.

تصميم الغلاف: نادية كمال